الشاعر المعاصر والاغتراب

صلاح عبد الصبور (أنموذجا)

أ. وردة ربعاني

جامعة عنابة

إن الحديث عن الاغتراب يقودنا إلى الحديث عن الغربة مما يجعلنا نؤكد على الفرق الشاسع بينهما إلا أنها كالجزء من الكل فالاغتراب هو "ذلك العزل المتزايد للنفس والذهن يدفع ذوي الحساسية المفرطة الدافعة إلى ضروب من الإبداع أو التعبير عن الذات، إذ يدرك المرء أنه باكتسابه المعرفة والقدرة على التعبير عن الذات وبتوصيله إلى رؤيا معينة يتحرك ذهنه مستمرا باتجاهها إنما هو يكتسب تناقضا مع مجتمعه يضطر عند نقطة ما من توتره أن يقتلع نفسه حتى الجذور من الأرض التي نما فيها وترعرع، ويمسي كالشجرة التي اجتثتها الرياح العاصفة، وأسقطتها على الصخور بكل فروعها وأوراقها وليس لها أن تنتظر سوى الجفاف"[1] فالاغتراب حالة مستمرة وليس مؤقتة تلازم الإنسان سواء أكان بين أهله أو مغترب بغيابه عن الوطن والعكس صحيح، أن فحوى رؤيا المغترب تتجسد في بحثه عن ماهيته لأنه يفقد وعيه، ذاته ويفقد الإحساس بكينونته الحقيقية وتسيطر عليه رؤيا التشتت، فهذه الرؤى الاغترابية التي تتلخص في فقدان التوازن وفي الانشراخ والخلخلة والتزلزل والانهيار والتصدع وعدم الاستقرار تشكل فحوى الاغتراب وتجلياته. ولقد استخدم الدارسون الغربيون "الاغتراب" للتعبير عن ما يحسه الإنسان في مجتمعه البشري "قشة" تعصف بها أهواء الحياة ومغريات البيئة.

في حين أن الغربة مصطلح عربي يفيد أكثر معنى البعد عن الوطن وفراق الأهل وهو معنى مكاني أكثر منه زماني وهذا المعنى حمله أول كتاب خاص بظاهرة الغربة والحنين في الأدب العربي وهو كتاب "ادب الغرباء" لـــ "أبي الفرج الأصفهاني" يقول صاحبه "جمعت في هذا الكتاب ما عرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة من كربة"[2].

فالغربة ظاهرة قديمة كما ذكرت المصادر العربية ان الإنسان الجاهلي ربطها بكثير من المعاني التي تتعلق بها فيذكر "الجاحظ" كلاما كثيرا عن تشاؤمهم بالغراب ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب[3].

فالغربة هي النفي الاضطراري والابتعاد عن الأهل والغياب عن الوطن والشعور بالحنين من جراء الوحدة تحمل في ثناياها معنى البين والحزن والشؤم ويشترك في ذلك مصطلح الغربة والاغتراب دون تميز بين الاسمين.

فإن حالة الغربة "الأنومي" هي كل حالة تكون فيها المعايير واضحة متصارعة وغير متكاملة ولا يوجد الفرد فيها أي علاقات هامة مع الآخرين.

أسباب الاغتراب في شعر "صلاح عبد الصبور" :

لقد كان الاحتجاج الذي أعلنه "صلاح عبد الصبور" في تجربته الشعرية على النقاد الذين وصفوه بالحزين احتجاجا غريبا ومبالغا حتى وإن أشار أولئك النقاد إلى إبعاده عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أنه يفسد المباهج والأفراح القائمة في شوارع تلك المدينة المزعومة يقول "صلاح عبد الصبور" : "يصفني نقادي بأنني حزين، ويدينني بعضهم بحزني، طالبا إبعادي عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أنني أفسد أحلامها وآمالها، بما أبذره من بذور الشك في قدرتها على تجاوز واقعها المزدهر" (في رأيه) إلى مستقبل أزهر. وقد ينسى الكاتب أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارا للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هربا من السفينة الغارقة، أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم، حتى ينقذوا السفينة،

أو يغرقون معها. والحق أن آراء محترفي السياسة، ودعاة الإصلاح الديني، أو الأخلاقيين التقليديين أو من شابههم. لأن كل هؤلاء لا يؤمنون بوجود الفن ككيان مستقل له طبيعته الخاصة، ولكنهم يتوهمونه تابعا ذليلا لفارسهم الأثير، فالسياسيون يتصورون الفن تابعا من توابع الأبنية الأساسية للمجتمع، ودعاة الإصلاح الديني يتوهمونه خادما ببغاويا لعقائدهم التحكمية، بينما يعده الآخرون وسيلة لبث الفضائل الاجتماعية والنهي عن الرذائل المقررة[4].

فلماذا كل هذا الغضب من جانب "صلاح عبد الصبور" على ناقديه ؟

ولماذا كل هذا التعامل والقسوة على الآراء السياسية ودعاة الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي ؟

إنه موقف خطير وضار، موقف قيل فيه أكثر مما كان يجب أن يقال.

وعلى ضوئه يمكن استرجاع جوانب عن تلك المعركة الهامشية التي دارت بينه وبين زميله الناقد الكبير الأستاذ "محمود أمين العالم". وهي معركة صور الجانب الكبير منها بأسلوب غير مباشر، وزمان المعركة على وجه التقريب لا التحديد عام 1964. فقد كتب الأستاذ "العالم" بعد خروجه من السجن مجموعة من المقالات النقدية المتفائلة أنحى فيها باللائمة على بعض الشعراء والكتاب الذين لا ينظرون بعين الأمل إلى ما يزخر به الواقع الجديد من التحولات، وقد طالب هؤلاء الشعراء والكتاب أن يقفوا إلى صف الفرح والثورة، إلى صف السد العالي، وبشكل مباشر أشار إلى بعض قصائد "صلاح عبد الصبور" المتسمة بالحزن والمرارة، وأبدى قدرا من الاستنكار في أن يوجد في عصر الثورة وعصر السد العالي شعراء يستسلمون لأحزانهم الذاتية، ويعبرون عن أحزانهم غامضة ومقتبسة.

و لم يسكت "صلاح عبد الصبور" بل رد على ملاحظات زميله بالتلميح أحيانا وبالتصريح أحيانا أخرى وظلت كلمات "العالم" محفورة في نفسه، وحين أعد كتابه (حياتي في الشعر) كان في بعض فصوله يتوقف وكأنه يرد على تلك الكلمات فيشير من طرف بعيد إلى الأستاذ "العالم" مذكرا إياه بأسباب حزنه. ومنها أن تكون السجون مقرا للمفكرين والأدباء وكان غبار السجن ما زال عالقا بجبين الأستاذ "العالم" حين كتب ملاحظاته.

فاندفع "عبد الصبور" ليقول أن من حقه أن يحزن في زمن يكون نصيب "العالم" وأمثاله السجن ونصيب الآخرين من الجهلة والأغبياء التمتع غير المحدود بالجاه والثراء والنفوذ، ومن حق الشاعر أن يحزن في عالم ممتلئ بالتفاوت الطبقي والفوارق الاجتماعية، وممتلئ بما هو أمر وأنكى، بالتفاهة والتافهين فيقول "صلاح عبد الصبور" : "أتكون دورة الحياة إذن لونا من رحلة النهر إلى مصبه، ولكن ما بالها حافلة بالألم والشر، خالية من الحرية إلا تحت مستوى الضرورة وهي حرية دنيئة لا تليق بسيد الكون، ولكن في الرحلة إلى جانب ذلك ألوانا من الإبداع، فقد يتحقق فيها خلق للجمال والقيم، وقد يتحقق فيها صنوف من الابتكار الصناعي، وقد يتحقق فيها مسرات الحب والصحبة والضحك"[5].

هل هذا كله تبرير كاف للحياة ؟ فما غايتها ؟

ويواصل "عبد الصبور" قوله أن "العالم" ما زال ممتلئا بالمرض والشر والفقر والألم. والبشرية ما زالت مريضة بالقسوة والإسفاف والتفاهة، ففي زمن سحيق كان المخالفون في الرأي يلقون في حظائر الأسود، وفي عصرنا هذا نقرأ في أسبوع عيد الميلاد لسنة 1969 م نداء من هيئة انجليزية لإنقاذ المسجونين في جريدة "التايمز" تنادي فيه بالإفراج عن عشرين من أهل الرأي الذين يعانون من وطأة السجن في بلاد مختلفة، ففي إندونيسيا يعتقل الشيوعيون، وفي شرق أوروبا يعتقل الليبراليون، وفي أمريكا يعتقل السود.

وفي العشرين دولة سبب مختلف، لم يكف أن تكون حرية الإنسان تحت مستوى الضرورة، إذ لا حرية للإنسان إزاء الإنسان، والأمر ليس أمر نظم أو تطبيقات اجتماعية، ولكنه أمر خيبة الإنسان في الارتقاء بحياته حتى يرفعها عن مستوى الضرورة، فالنظم الاجتماعية كانت ردا على فشل الإنسان في تجاوز همجية حياته، لقد وهب الإنسان الأرض عشرة آلاف سنة منذ نشأ أول تجمع إنساني، ووهب إلى جوار ذلك عقلا وفكرا وتدبيرا يساعده على ربط السبب بالغاية، وكان في مقدوره أن يجعل من هذه الأرض جنته لو أحسن استغلال ميراثه العظيم، ولكنه جعل منها جحيمه المقيم، فما زال الفقر يقتل الملايين في مكان ما من العالم. كل

منجزات الإنسان من علم وصناعة قد استغلها دون إدراك أو تبصر أو إنسانية، ولقد نشأت الصناعة وتركزت في أيدي المغامرين والرأسماليين، أما السفينة التجارية فاستغلت في الاستعمار، حتى التكنولوجية تستغل في التعذيب.

هذا بعض من قليل مما يراه الشاعر داعيا للحزن أو كما يرى[6].

يريد أن يقول أن هذه بواعث للألم، وإذا كانت هذه نماذج حياته من الهموم التي تسكن الشاعر وتصنع آلامه، فإن الموت هم أخر بل هو سيد الهموم والمنقذ منها جميعا، والشاعر الذي تسكنه فكرة الموت لا يستطيع ان يواجه الحياة إلا بعينين دامعتين وبقلب راجف. بالرغم من أن "عبد الصبور" يقول أن ما يجمع البشر جميعا هو مواجهتهم للحياة، وهو تعبير يقترب من "الشرط البشري" الذي أطلقه "مارلو" بتصوير يحفز الإنسان ومواجهته قوى الشر والعدم، إلا أنه يرتعش أمام ذكر الموت وينسى شرط المواجهة[7].

ويتحول إلى إنسان ضنين بحياته خائف على مصيرها ويقول "صلاح عبد الصبور" : "وسواء أكان الإنسان قد ألقي من الجنة إلى الأرض محكوما عليه بالحياة فيها ومعاناتها، أو نما من خلية نشطة وتدرج في سلم المخلوقات حتى وقف على قدميه الخلفيتين، فها هو ذا الآن على سطح الكرة الأرضية مسيطرا عليها منذ ألوف من السنين يحاول جاهدا أن يذللها لوجوده. إن الوجود هو المعطي الأول للإنسان بدون شك، وكل وجود يستدعي علة أو بحثا عن علة، ولكن الحياة لا تتوقف حتى يبحث الإنسان عن العلة، فحتى "سقراط" نفسه لا بد أن يأكل لكي يستطيع المشي في شوارع أثينا ولا بد للإنسان أن يبتلع أحيانا سؤاله عن علة الوجود لكي يسأل نفسه عن غاية الوجود. الإنسان يعرف أن لكل شيء غاية لأنه الحيوان الوحيد الذي يستطيع أن يربط بين المقدمان والنتائج، وهو حين يعاين الموت يلح هذا السؤال عليه إلحاحا ممضا فمما لا شك فيه أن الموت نفي للحياة، وحين يدرك الإنسان أن كل شيء محكوم عليه بالموت، وإنه ينتظر الموت وإن كان لا يتوقعه كما يقول "سارتر"، يدرك الوجود والعدم وجهان لكون واحد"[8].

تلك هي بواعث الألم في نفس الشاعر، عذاب الآخرين، وتفاهة الآخرين وظلم الآخرين، ثم الموت هذا الوحش المتربص للإنسان في شارع الحياة القصيرة، سواء أفاجأه في المدخل أم في المنتصف أم في نهاية الشارع، النتيجة واحدة، فقدان الحياة أو نفيها عن وجودها فهذه البواعث هي نفسها الأسباب التي جعلت "عبد الصبور" شاعرا مغتربا فهي تكاد تكون الأسباب نفسها التي جعلت منه شاعرا ويرى أن الشعر له قدرة على مواجهة العلم ومنجزاته، فالشعر عنده يقوم ثلاث مؤثرات هي الحب والحزن والموت، وما دام هذا الثلاثي قائما فإن الشعر سيظل موجودا ولن ينتقص العلم ولا رحلات الفضاء من أمره أو سلطانه شيئا.

فـــ "صلاح عبد الصبور" تمحورت فكرته التي اختارها لنفسه من أجلها أن يكون شاعرا متألما ومغتربا، فقد ارتفع بالألم إلى درجة المسؤولية والإنسان ليس له أمام هذا الكون المضطرب إلا أن يختار موقفا من ثلاث : موقف المسؤولية بما يتبعه من ألم، وموقف الانتحار المادي والهروب من الحياة، ثم الموقف الثالث وهو موقف الانتحار الأخلاقي وهو في التحلل من كل القيم والالتزامات، وهذا الموقف الأخير هو الأسهل بالنسبة للكثيرين. فإن "صلاح عبد الصبور" اختار الموقف الأول موقف المسؤولية والألم، وإنه لذلك قد اختار ان يعيش من أجل أعظم الفضائل والفضائل عنده ثلاث : الصدق والحرية والعذاب وقمة الصدق هو الصدق مع النفس، وما شعره – بوجه عام –على حد تعبيره – هي قلبي وجرحي وسكيني معا فيقول : "إني لا أتألم من أجلها – أي من أجل القيم أو الفضائل الثلاث – ولكني أنزف" [9] الترف الدائم هو الذي يجعل شاعرا مغتربا باحثا عن الخلاص وليس شاعرا حزينا مستسلما لهواجس الحزن والانتظار الجريح.

انطلاقا من هذه الأسباب التي جعلت شاعرنا "صلاح عبد الصبور" مغتربا. نحاول الولوج في عالمه الشعري متسائلين عن مدى التصاق شعره بالإنسان وقضاياه المختلفة ؟

يعتبر "صلاح عبد الصبور" من شعراء الخمسينات الذين تأثروا بالحداثة الشعرية وهي في نظرهم ظاهرة اجتماعية وجماعية.

فقراءتنا لبعض أشعاره جعلتنا نحس وهو يغني بصدق قضايا إنسانية، من خلال استيعابه الشعوري العميق للواقع :

"أغوص في دمك

وليس بيننا سوى السلاح

وليحكم السلاح بيننا

ساء بك الجدود وقعها المهيب ما يزال

يموج في ذاكرة الأيام" [10].

ففي تلك الفترة كان الإنسان العربي يعاني من صراعات فيما بينه من جهة وبين أعدائه من الخارجيين من صهاينة وإمبرياليين من جهة أخرى فهو لم يكن في حاجة إلى كلمات سحرية منمقة تجعل المتلقي يغرق في المتاهات اللذيذة أو يركن إلى أكاذيب صبيانية حيث تجعله يتحرك في اللازمن. إذ يتحول الشعر والإبداع إلى مجرد نبوة قدرية وبالتالي يبعد الفن عن وظيفته الحقيقية وهو التعبير عن رغبات الإنسان المشروعة وحوافزه الدفينة، والذي يغطيها بغشاوته، ذلك الجدار الوهمي القائم بين عالم الحتمية والضرورة، وعالم الحرية والاختيار.

استطاع "عبد الصبور" التصدي لإضاءة الواقع العربي بذور شعره مركبا منه سنفونيته الخاصة التي تكشف وتتنبأ بآفاق المستقبل، وفاضحا ذلك الفرق الكاذب بين المظهر الناعم لسادة القصور، وبين مصالح طبقتهم المتوحشة ممثلها المخادعين عديمي الضمائر الذين يؤمنون بأن كيس النقود يتحكم في الحياة الاجتماعية، حيث يقول :

"وأقول سلاما

وأنا لا أمتلك من دنياي سوى لفظ سلام

وجلسنا في الركن النائي

نحكي ما قد صنعته الأيام ونما في قلبينا مرح مغول الأقدام

مرحا خلاب كالأحلام

وقصر العمر

هل يضحك يا نجمي إنسان مقصوم الظهر"[11].

نستخلص من هذا أن الشاعر "صلاح عبد الصبور" رافض الركض وراء الربح والشهرة وكذلك رافض المواعظ التربوية المتحذلقة المباشرة التي تجعل منه بوق العصر، رابطا بلا فكاك العلاقة الجدلية بين الغايات والوسائل، فهو يسعى إلى تصور المستقبل دون نسيان الماضي، وهذا ما جعله يفهم ويرى وظيفة الشعر والإبداع الفني عموما.

يقول "عبد الصبور" في ديوانه (أحلام الفارس القديم) :

"رغم أحبتنا، وضعوا الشمعة في الشباك

وناموا في اطمئنان

في أعينهم ذكرانا كملائكة رحلوا كي يأتوا بالغد

كي يأتوا بالمستقبل

حلم قد لا تنشده"[12].

فالذاكرة هنا جاءت لرأب صدع الحالة النفسية للشاعر وهو حامل الأمل في إبحاره نحو المستقبل باحثا عن فردوسه المفقود أي حريته الغائبة وسط عالم مقهور.

أما مرحلة السبعينات فهي بالطبع مرحلة سيطرة السلطة الرأسمالية في مصر وسلوكاتها الخيانية تجاه قضية الشعب الفلسطيني.

فهذه المواقف تعبر عن رؤيا "صلاح عبد الصبور" الفكرية التي تتسم بعدم الوضوح والتشويش، إذ كانت أشعاره جوابا شافيا وسط الجحيم الذي يتلظى بناره، وزادت شخصيته الشعرية والفنية تبلورا وصقلت مواهبه بقلب ملهوف وعيون متأملة، وسط وهلة المعاناة وروح الاستكشاف فتميز شاعرنا بالتوفيقية التي أدت به في النهاية إلى ارتداء معاطف ورموز بدائية وميثولوجية متفسخة والجلاد يلاحقه.

فالإشفاق عليه يجعل الشاعر يدرك سر غربته وكنهها لأن غربته في عصرنا كغربة السندباد في مواجهة جدار الزمن. يقول "عبد الصبور" :

"لينثر فتات لحمنا على جناح عيشنا الغريب
وليتغرب في قطار العمر والسهوب
ولنكسر في كل يوم مرتين
فمرة حين نقابل الضياء
ومرة حين تذوب الشمس في الغروب"[13].

حاول "صلاح عبد الصبور" من خلال الواقع الهروبي أن يعيش خارج حركة الفعل بالتمويهات الميتافيزيقية والإيديولوجية زاده في ذلك الاستغراق الكلي في الصوفية بعد أن شكلت لديه صوفية الحلاج مرحلة إشراق مبدعه، جعلته يتميز عن شعراء مرحلته جميعا[14].

ونحن نقلب صفحات ديوان الشاعر "صلاح عبد الصبور" هالنا حديثه عن تجربة الضياع والتمزق النفسي والاضطراب الداخلي والقلق الوجودي والغربة الذاتية. فحين نمعن النظر في قصيدة (أغنية للشتاء) التي يقول فيها الشاعر :

"ينبئني شتاء هذا العام أنني أموت وحدي
ذات مساء مثله، ذات مساء
وأن أعوامي التي مضت كانت هباء
وأنني أقيم في العراء
ينبئني شتاء هذا العام أن داخلي ...
مرتجف بردا
وأن قلبي ميت منذ الخريف ...
قد ذوى حين ذوت"[15].

ونستقرئ كلماتها ونستشف غربة "صلاح عبد الصبور" في المدينة فكلمة (أغنية) لا تنبئ بالفرح دائما فقد يقول الحزين أيضا على (الأغنية) تنهدا لكثرة ما يجمل من الهموم والآهات وتكون (الأغنيات) زفرة تخفف وطأة الآلام عن المعنى. خاصة إذا كانت تلك الأغنية "الشتاء" وهو ما يبعد احتمال المسرة في ترديد تلك الأغنية. وقد تساءل "أبو العلاء المعري" في قوله :

"أبكت تلكم الحمامة أم غنت **** على فرع غصنها المياد"

فالبكاء والغناء من صنعة الحمامة ولو قلت أنها تبكي وسئلت أو قلت إنها تغني وكفى لما أدركت الحالين شيئا من سر الحمامة فقد يقال إن حالة الإنسان المعنوية قد تجعله لا يسمع في صوت الحمامة إلا البكاء والنحيب. كما أنها قـــــد تجعله لا يسمع في صوتها إلا الغناء والطرب[16]. يقول "عبد الصبور" :

"ينبئني شتاء هذا العام أنني أموت وحدي".

فالمرء حينما تمر به ليلة هو جاء من ليالي الشتاء الباردة تذكره بالمصير المحتوم لكل كائن وهو الموت فيزيده التفكير في ذاك المصير قتامة على قتامة ليل الشتاء وبردا على برده وحزنا على حزنه وخوفا ورهبة،... خاصة إذا كان هذا الشعور ينتابه دائما وينغص عليه أو يقات فرحه. ويتجلى ذلك في قوله :

"أن قلبي ميت من الخريف
قد ذوى حين ذوت".

التي تشير إلى طول المدة وقد استعان الشاعر بمجموعة من الأدوات ليدلل على استقرار تلك الفكرة في خلده منذ وقت ليس بقصير.

فاستخدام (أن) إضافة إلى (اسم الفاعل) وإضافة إلى (منذ) تدل على اتصاف الشخص بتلك الصفة وتجذرها فيه، ويحاول شاعرنا الابتعاد عن هذا الكابوس ولكن دون جدوى فهو لا يستطيع التنصل منه لحظة إلا عاوده مرة أخرى.

يحس الشاعر أن الموت يلاحقه وقد يتخطفه في أي لحظة ولذلك نرى شاعرنا ممزقا دائم التفكير في هذا المصير ويبدو ذلك واضحا من خلال قوله :

"وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلا".

ويبدو ذلك أيضا في تكرار كلمة الموت (8 مرات) بالإضافة إلى ما كنى عنه.

ولعل ما يستدعي الانتباه في قصيدة "أغنية للشتاء" تكرار المضارع "ينبئني" التي تفيد التجدد والاستمرار لتلك المشاعر المحزنة التي تقد مضجع شاعرنا "عبد الصبور".

إضافة إلى التوكيد "إنني" الذي يفيد استقرار تلك الفكرة وترسيخها في ذهنه، والملاحظ أنه كرر إلى التوكيد تلك (15 مرة)، ضف إلى ذلك استخدامه (قد) التي تؤكد هذه المشاعر وتمكنها منه.

ولهذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن غربة "صلاح عبد الصبور" النفسية في هذه القصيدة يمثل الشاعر جوهر القضية فهو يعيش هذا الوضع بمختلف ملابساته، وهو جزء من القضية أو بل هو القضية نفسها ويتضح ذلك في استعماله للضمير المتصل (أنني) التي تفيد التوكيد ومما يمكن ملاحظته في نهاية المطاف أن الشاعر بدأ حزينا شاكيا باكيا. حين نتمعن دوان الشاعر (الناس في بلادي) ونمعن النظر في قصيدته (رحلة في الليل) نجد كلمة الليل تنبئ بالخوف والرهبة نتيجة الظلام الذي يخيم على المعمورة فهذه الكلمة (ليل) توحي إلينا بمدى القلق النفسي الذي يعيشه الشاعر. وأول ما يشد انتباهنا عنوان تلك القصيدة (بحر الحداد) فالحداد حزن شديد على ما ضاع منا من غال ونفيس والحداد بعد عن مباهج ومسرات الحياة نتيجة لما انتاب النفس من هم وغم أبعدها عن التفاعل مع بهجة الحياة وهذه الكلمة (حداد) مضافة إلى كلمة (بحر) دليل شساعة رقعة الحزن في حياة الشاعر. يقول :

"الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير

ويطلق الظنون في فراشي الصغير

ويثقل الفؤاد بالسواد

ورحلة الضياع في بحر الحداد

فحين يقبل المساء، يقفر الطريق، والظلام محنة الغريب"[17].

يوظف الشاعر في هذه الأبيات مجموعة من الألفاظ والعبارات التي تشير إلى تلك الظاهرة التي يعاني منها حزن واكتئاب وغربة نفسية في (الليل، ينفضوني بلا ضمير، يطلق الظنون، يثقل الفؤاد، السواد، الضياع، الحداد، الظلام، منحة، الغريب). وكلها تنم عن قلق مفعم بالغربة والضياع.

يحس الشاعر أن الموت يلاحقه وهو مصير محتوم فهو مرة يشبه نفسه بطائر صغير افترسه جارح كبير ويتجلى ذلك في قصيدة (أغنية صغيرة) :

"إليك يا صديقتي أغنية صغيرة

عن طاشر صغير

في عشه واحده الزغيب

وإلفه الحبيب

يكفيهما من الشراب حسوتا منقار

ومن بيادر الغلال حبتان

وفي ظلام الليل يعقد الجناح صرة من الحنان

على وحيدة الزغيب

ذات مساء، حط من عالي السماء أجدل منهوم

ليشرب الدماء

ويعلك الأشلاء والدماء

وحار طائري الصغير برهة، ثم انتفض ...

معذرة، صديقتي ... حكايتي حزينة الختام

لأنني حزين ...[18].

في هذه الأبيات يروي الشاعر لصديقته قصة العصفور الصغير الذي لم يكتمل نموه، العصفور الذي لم يؤذ أحدا و لم تكن مطامحه تتجاوز الشراب والغذاء البسيط. لكن ما حدث لهذا الطائر الصغير لم يكن في الحسبان، إذ فاجأه في أحد الأيام طائر كاسر وهو الصقر في عشه ومزقه بمنقاره الحاد ومخالبه القوية، والمسكين لا يملك أي وسيلة للدفاع عن نفسه.

هكذا كانت نهاية الطائر الصغير عن مأساة نتيجة الظلم والغدر. فالشاعر أراد أن يلمح لصديقته أن مصيره يشبه مصير الطائر المسكين. وأن يشير إليها من خلال هذا التعبير المجازي بأنه يعيش في عالم مجهول القوي يأكل الضعيف في غياب عدالة اجتماعية منصفة تحمي الضعيف وتعاقب الظالم.

فأجدل المنهوم الذي هبط من أعالي السماء ليغتال الطائر الصغير وواحده الزغيب إنما هبط بلا سبب معقول، فالطائر لم يؤرق الكون و لم يزعجه في شيء، و لم تكن مطامحه تتجاوز من الشراب حسوتي منقار ومن الغلال حبتين، فليست حياته إذن سوى صورة للوداعة والقناعة ولا يمكن بحال من الأحوال أن تشكل الشر الذي ينبغي أن يستأصل. ومع ذلك يهبط الأجدل المنهوم لكي يضع نهاية لهذه الحياة الوادعة بلا سبب مفهوم. لم يخدشه الطائر الصغير بظفر، أو يفقأ له عينا بل لم يجن أي جناية يستتبع القصاص، ومع ذلك فهو ينتهي فجأة إلى هذا المصير الأليم"[19].

و لم تكن هذه القصة (الطائر الصغير) إلا المقابل الموضوعي للذات، فالشاعر نفسه متورط في نفس الوقت وهو يقول :

"الطارق المجهول، يا صديقتي ملثم شرير

عيناه خنجران مسقيان بالسموم

والوجه من تحت اللثام وجه بوم

لكن صوته الأجش يشدخ السماء

إلى المصير ... ! والمصير هوة تروع الظنون

وفي لقائنا الأخير يا صديقتي وعدتني بنزهة على الجبل

أريد أن أعيش كي أشم نفحة الجبل

لكن هذا الطارق الشرير فوق بابي الصغير

قد مد من أكتافه الغلاظ جذع نخلة عقيم

وموعدي المصير ... والمصير هوة تروع الظنون".

فهذا الأجدل المنهوم يقف بباب الطائر الصغير كي يقطع عليه أمنه ويبعثر أمله في أن يشم نفحة الجبل أو في أن يستمتع مع صديقته فوق الجبل، ويجره إلى مصيره المحتوم إلى هوة تروع الظنون.

فالشاعر أقبل على الحياة في سلم ووداعة وقد تحددت مطامحه بالصور المشرقة من هذه الحياة، فما مبرر أن تسلب منه الحياة ؟

وقد تنطلق الذات صارخة في وجه هذا الكون التعس الذي تمثل فيه الحياة أكذوبة عريضة لأن الشيء الحقيقي فيه فيما يبدو، هو الموت وليس الحياة.

إن الموت ظاهرة عامة أو قل حقيقة يسلم بها الجميع، إلا أنها عند الشاعر شاغله الأول بل هي تفرض وجودها على كل تفكيره وتنتهي دائما إلى حالة من التشاؤم لا سبيل إلى التهوين من شأنها، إنه يعيش موته كما يقول "سارتر" وهو يتمثله لا لأنه بشر والبشر يموتون، وإنما لأنه ماثل أمامه في كل دقيقة يستقطب الحواس وإلى جانب ذلك هو في تصويره نهاية الطريق المغلقة لتطورنا الثقافي وكأنما كل القيم ذات الأهداف المختلفة يمسك بعضها خناق البعض الآخر في محاولة للقضاء عليها وعلى ذلك فإن الدور الأساسي للشعر هو النضال البطولي لمقاومة هذه القوة الطاغية حتى لا يعيش الناس موتهم في الحياة. على أن فكرة الموت رغم ذلك تملأ ذهنه بالصور المرعبة التي تطلق منه الصرخات مدوية أو تلجمه بحيث لا ينبس ببنت شفة وفي كلتا الحالتين يتجلى شعوره في نغمات بطيئة حزينة آسرة.

"صلاح عبد الصبور" شب ورعا تقيا كان كثير التعبد، كثير الصلاة لكن الذي حدث وسبب له هذه الغربة النفسية وهذا الزلزال الروحي الذي مزق أوصاله وجعله لا يهنأ بلحظات عمره رغم أن الحياة قيل أنها ابتسمت له لكنه كان جد حزين فلم يبادلها تلك البسمة وظل قلقا مشوش الفكر وقد لا يجافينا الصواب لو قلنا إن قراءاته الكثيرة والمتأنية لكتبات"إليوت" وغيره من الشعراء الذين كانوا يعانون من التمزق النفسي كانت سببا في سيطرة هذا الشعور فتأثر "صلاح عبد الصبور" بالشاعر "إليوت" لم يكن على مستوى أفكاره فقط، بل من خلال رؤاه على مستوى الكتابة الشعرية، وحبه للتراث بكل أنواعه، فـــ "إليوت" بالنسبة لـــ "صلاح عبد الصبور" المثل الأعلى الذي يحتذى به.

"وبالإضافة إلى ذلك هناك أسباب أخرى ربما تكون شخصية لانجذاب "صلاح عبد الصبور" لطريقة الشاعر "ت س إليوت" من خلال الشبه في التكوين النفسي والمزاجي لكلا الشاعرين، وهذا الشبه أدى إلى تقارب إن لم نقل تطابق في الرؤية الفنية لكليهما، فالنزعة الصوفية التأملية ورنة الحزن التي تضفي جوا من الكآبة الميتافيزيقية إلى جانب العمق الفلسفي، وإحكام الصنعة، وتجويد الأداء هي القواسم المشتركة في آثار الشاعرين على حد قول النقاد، إضافة إلى أوجه الشبه الأخرى فكلاهما ناقد ومفكر وكاتب مسرحي وصحفي متميز إلى جانب المكانة الشعرية المتميزة والأثر الأدبي الذي خلفه كل منهما في بلده"[20].

خاتمة :

لقد كان "صلاح عبد الصبور" شاعرا متدفقا بالحيوية مستمسكا بتلقائية التعبير ومتموج الإيقاع وفقا لما تقتضيه درجة المعاناة إنه شاعر وفكر أو فل نقل شاعر فيلسوف وبعبارة أخرى نقول إن "صلاح عبد الصبور" كان من المحذفين الذين رفضوا أن ينسب شعرهم في جملته إلى عالم الماوراء حتى وإن صرخ في وجه المستبد ذلك الصراخ الهادئ وهو بين معاصريه سيد النسق الموسيقي المزاح عن الضوابط الخليلية والمفعم – على تزاحم أفكاره – بالحساسية ورهافة الفائقة.

فالشاعر يمتلك زمام النصوص التي يكتبها على نحو يبين أنه قطع في مغامرته مع اللغة مسافات يعدو فيها التشاؤم واغتراب الروح والوحدة والإحباط والظلام عناصر غنائية استطرادية تمكن التعبيرات الغنائية الشائعة من أن تنفتح على أزمان معاناته اللامحدود، وبإيقاعات وتدفقات هادئة آسرة.

الهوامش :

[1]– سليمان حسين، مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا ابراهيم جبرا الروائي، ص 203

[2]– عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945 – 1962، ص 14. نقلا عن الأصفهاني، أدب الغرباء، ص 23.

[3]– المرجع السابق، ص 14. نقلا عن الجاحظ، الحيوان، ص 316.

[4]– عبد العزيز المقالح، الشعر بين الرؤيا والتشكيل، للدراسات والترجمة والنشر، دمشق –أوتو ستراد المزة، ص 61، نقلا عن صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، ص 99.

[5]– المرجع السابق، ص 64 – 65، نقلا عن المرجع السابق، ص 122.

[6]– المرجع السابق، ص 65 – 66.

[7]– المرجع السابق، ص 65 – 66.

[8]– المرجع السابق، ص 66 – 67، نقلا عن صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، ص 121.

[9]– المرجع السابق، ص 70 – 72. نقلا عن المرجع السابق، ص 122.

[10]– صلاح عبد الصبور، المجلد الأول، الناس في بلادي، ص 92.

[11]– صلاح عبد الصبور، المجلد الأول، تأملات في زمن جريح، ص 107 – 108.

[12]– محمد بوشحيط، الكتابة لحظة وعي، مقالات نقدية، ص 108. نقلا عن المسرحية الشعرية "ليلى والمجنون".

[13]– صلاح عبد الصبور، المجلد الأول، أحلام الفارس القديم، ص 204.

[14]– محمد بوشحيط، الكتابة لحظة وعي، مقالات نقدية، ص 106 – 110.

[15]– صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 193.

[16]– عز الدين إسماعيل، الأدب العربي المعاصر، ص 301.

[17]– صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 07.

[18]– المرجع نفسه، ص 8 – 9.

[19]– غالي شكري، شعرنا الحديث ... إلى أين ؟ ، ص 232.

[20]– http://www.gehat.com/arisalah/indeseltem